والحياة البشرية تقوم على الاثنين معاً ، ولا يمكن أن تقوم على واحد منهما فقط فالدين لنشر مكارم الأخلاق والآداب وتهذيب النفس وضبطها وتغذيتها وتزيينها ، والسمو بالروح وبعث الضمير وتوجيه العلم وطاعاته وقواه إلى طريق الخير والحق والسلم لا إلى طريق الشر والباطل والحرب . والعلم لبناء الجانب المادى من الحياة وخدمة جسم الانسان وتوفير مايلزم له من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وغير ذلك .

يفهم مما تقدم أن ما تطور وتغير من الحياة البشرية عبر السنين والقرون هو شكلها ومظهرها ووسائلها وأساليبها أما الروح والجوهر والغاية والهدف فلم يطرأ عليها تطور ولا تغيير .

هل الدين رجعى لا يماشى الزمن

ويمنع التطور والتقدم

يتهم بعض الناس من مسلمين وغير مسلمين الدين بالرجعية والجمود والقصور عن مماشاة ركب الحياة المتطور الصاعد . ومن ذلك قول كارل ماركس فيلسوف الشيوعية إن الدين أفيون الشعوب ، أى أن الدين يخدر الشعوب كالمخدرات ويمنعها من العمل والانتاج والتقدم . وفى رأيى أن هذا الاتهام باطل لمجافاته

روح الحقيقة والواقع ، فهو لم يصدر عن دراسة عميقة وافية ولا عن نظرة فاحصة دقيقة لحقيقة الدين وجوهره وإنما صدر عن رؤية صورة زائفة مشوهة للدين تمثلت فى جهلاء متنسكين وعلماء متهتكين تاجروا بالدين وأساءوا العمل به وسادوا لجبنهم ونفاقهم فى ركاب حكام طغاة مستبدين وبخاصة فى أوربا فظنوا أن الدين يبيح لهم ما رأوا منهم من انحراف وفساد واستبداد ، وهناك ناس مغرضون أعماهم الهوى والتعصب عن الرؤية الصافية الصادقة لحقيقة الدين والحكم الموضوعى السليم عليه ، والهوى والتعصب آفة الرأى الصائب والحكم السليم وحجاب الحقيقة .

وحكم كارل ماركس على الأديان السماوية كلها كان من خلال رؤيته السطحية لمواقف رجال الدين المسيحى المهائلة فى روسيا القيصرية وسائر أوربا من الملوك والقياصرة المستبدين المتسلطين على مقدرات شعوبهم والمستغلين لخيراتها والممتصين لدمائها . ومن خلال مواقفهم السلبية من النهضة العلمية الحديثة ، ومن سوء استغلالهم لما كان فى أيديهم من مظاهر السلطة والسلطان .

وهكذا كان حكم كارل ماركس وغيره على الأديان السماوية واتهامها بالرجعية والجمود صادرا عن جهل وسوء فهم لها وعن مشاهدة صور ممسوخة مشوهة لها فمثلهم فى ذلك مثل شخص اتهم

القانون بالجور والإجحاف لأن القاضى تلاعب بالقانون وفق الهوى والغرض وخرج به عن طريق العدل والإنصاف ، مع أن الواجب يقتضى اتهام القاضى لا القانون فالمبادىء والأديان والقوانين والدساتير والقرارات السليمة العادلة لا تؤتى أكلها ما لم يتول تطبيقها شخصيات عاقلة واعية ومستقيمة نزيهة .

فلو درس كارل ماركس وغيره تاريخ العرب قبل الإسلام وفى ظل الإسلام الحنيف وبعده لعرف أن الإسلام دين الحرية والإخاء والمساواة والتقدم والعلم والحضارة ولعرف أنه عدو الرجعية والتخلف والعبودية والتسلط والاستغلال والجهل والظلام ويدل على ذلك تاريخ العرب المشرق وماضيهم المجيد . فالكل يعرف أن العرب قبل الإسلام فى ظلمات العصر الجاهلى عصر الجهالة والأمية والضلال كانوا مستعمرين للفرس والروم والأحباش ولم يكن لهم دولة ولا حضارة وكان يسودهم النظام القبلى الذى يقوم على الولاء المطلق لرئيس القبيلة والتعصب الأعمى لكل فرد فيها فى الحق والباطل وفى الخير والشر . كما أنهم كانوا ممزقين عقائدياً ودينياً فقسم كبير منهم اتخذ الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله وبعضهم عبد الكواكب والنجوم وبعض الحيوانات . وهناك الدهريون الملحدون الذين قالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا

نموت فيها ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . وظهرت الديانتان النصرانية واليهودية فى نجران واليمن ويثرب وخيبر .

وكانت تمزقهم وتطحنهم بعض الأخلاق الذميمة كالأثرة والأنانية والعادات السيئة كوأد البنات والسكر ولعب القمار والأخذ بالثأر واستغلال الغنى للفقير واستعباد القوى للضعيف فضلا عن كسب المال الحرام بطريق الجشع والاستغلال والربا والغزو والنهب والسلب .

وقد أخرجهم الإســـلام من الظلمات إلى النور ومن الجهل والضلال والكفر إلى العلم والهدى والإيمان. ومن التمزق والانقسام والتقاتل إلى التعاون والاتحاد والتآلف ، فتجمعوا قولا وعملا ولسانا ويدا وعقلا وقلباً فصاروا بنعمة الله وفضله إخوانا متآلفين وأسرة متحابة متضامنة على بناء الخير وهدم الشر ، فتحلوا بمكارم الأخلاق وسامى الآداب وكريم العادات والصفات وأقاموا أعظم دولة للعلم والإيمان امتدت إلى فرنسا غرباً والصين شرقاً . وأضاء سماء الدولة العربية الإسلامية وأرضها نور حضارة عربية إسلامية قبست من أنوار حضارات الفرس والروم والإغريق والهند وكانت منار الدنيا فى العصور الوسطى ثم قبست من أضوائها أوربا واتخذت منها أساساً وبذوراً لحضارتها المعاصرة وسطع فى سماوات العالم العربى والإسلامى وآفاقه كواكب ونجوم فى شتى ألوان العلوم والآداب

والفنون. وفى ظلال الإسلام الحنيف الوارفة انتشرت اللغة العربية فى أرجاء العالم وصارت لغة الحضارة العربية الإسلامية وانصهر فى بودقة العروبة والإسلام شعوب كثيرة ودخل فى رحاب الإسلام أمم عديدة ، وآخى الإسلام بين المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم . فلو كان الإسلام كالأفيون يخدر الشعوب ويجمدها ويمنعها من النهوض والتقدم والحياة الحرة الكريمة لما هدى العرب والمسلمين ووحدهم وأعزهم من بعد ضلال وانقسام وذل ، ولما أقاموا فى ظله أعظم دولة وأرقى حضارة فى العصور الوسطى. ولا أدل على سمو الإسلام وتقدميته من أن العرب عادوا بعد أن تحللوا من مبادئه السامية وأخلاقه العظيمة وانحرفوا عن صراطه المستقيم إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام من جاهلية وظلام وتخلف علمى حضارى وتفرق وضعف .

وإذا ما نظرنا فى الإسلام الحنيف وقابلنا الطرف فيه تبين لنا أنه تتجسد فيه التقدمية الحقة والنهضة الصحيحة والحضارة الإنسانية الخيرة المثمرة . ونحرف ذلك من أن أول آية كريمة نزلت فى القرآن الكريم تأمر بالقراءة التى هى مفتاح العلم والحضارة : « اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

وتتابع نزول الآيات الكريمة التى تحث على طلب العلم والتسلح به . قال سبحانه وتعالى: « وقل رب زدنى علماً » . وقال جل شأنه : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وقال تبارك وتعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

وطلب العلم فريضة محكمة على كل مسلم ومسلمة كما قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وفرض على المسلم أن يسعى إلى العلم ولو كان فى أقصى الأرض كما قال أحد المفكرين المسلمين : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

والمسلم الذى يطلب علماً نافعاً ينفع به نفسه وأهله وأمته يدخل به الجنة كما قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) : « من سلك طريقا يطلب فيه علما يسر الله له به طريقا إلى الجنة » وقال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . وفرض على المسلم أن ينفع الناس بما نال من علم ونور وإلا كان أثرا أنانيا . والمؤمن لا يكون أنانيا .

* * *

ولا شك فى أن العلم والحضارة من ثمار التفكير السليم العميق الحر .

لذلك جعل الله التفكر والتأمل فى ملكوت الله وفى خلق السموات والأرض وفى أعماق النفس البشرية فريضة وواجباً وأمراً . وقد وصف الله تعالى المؤمنين أولى الألباب بأنهم هم الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض فقال : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

وأولو الألباب الذين هداهم الله يميزون بين الكلمة الطيبة المثمرة والكلمة الخبيثة العقيمة ويتبعون الكلمة الحسنة كما قال الله سبحانه وتعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

ويحث الله تعالى الناس على أن يتدبروا القرآن الكريم وينظروا فى محكم آياته ليهتدوا إلى الله ويروا عظمته ووحدانيته فيقول :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » .

« كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » .

ويدعوهم إلى التفكر فى أنفسهم ليتبينوا قدرة الله المعجزة

وحكمته البالغة فيقول : « أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » .

ويقول جل شأنه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

وينعى الله تعالى على قوم إبراهيم عليه السلام تقليدهم الأعمى لآبائهم فى عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة والتى لا تسمع ولا تنطق ولا تنفع ولا تضر فيقول : « واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » .

والتفكير لا يؤتى أكله ما لم يكن حراً كنور الشمس . ومن حرية التفكير حرية التعبد والتدين لذلك لم يكره الله تعالى أحداً على الدخول فى دينه الإسلامى الحنيف فقال جل شأنه : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . وقال عز وجل : « قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين » .

وجعل الله تعالى مهمة رسله وأنبيائه تبليغ الناس رسالة ربهم وجعلهم مبشرين ومنذرين لا مستبدين ولا متحكمين متسلطين .

قال عز وجل : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » . وقال جل جلاله : « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » ، وقال تبارك وتعالى : « فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا أن يتبع أسلوب الإقناع والحكمة والموعظة الحسنة فى دعوة الناس إلى الدخول فى دين الله لا أسلوب القوة والاكراه ، لأن اعتناق الأديان والمذاهب يكون بالرضا والاقتناع والاختيار ولا يكون بالعنف والإجبار ، فالمرء يخلص للدين الذى دخل فيه طائعا مختارا ولا يخلص لدين أرغم على اتباعه ، وما يأتى بالحب والإيمان يدخل القلب ويزكو ويثمر وما يأتى بالتهديد والاكراه لا يتعدى حد الأذن واللسان ولا يلبث أن يئول إلى الهجر والنسيان بمجرد زوال القوة التى فرض بها .

وهكذا لا إكراه فى الدين كما أنه لا إكراه فى الزواج الذى ينمو ويثمر ثمراً طيباً إذا قام على تبادل الحب والرضا ولا ينمو ولا يثمر إذا بنى على الغصب والإكراه . كذلك لا إكراه فى تناول الطعام والشراب ، فإذا أرغم شخص على تناول طعام أو شراب

لا يرغب فيه لا يستسيغه ولا يستفيد منه . أما الطعام أو الشراب الذى يتناوله راغباً فيه فإنه يستمرئه وينتفع به .

قد يسأل سائل : وماذا تقول فى محاربة المسلمين للفرس والروم وبعض القبائل العربية. فنجيبه بأنها كانت دفاعاً عن النفس وردا لعدوان أعداء الإسلام وإزالة للعقبات التى ظهرت فى طريق انتشار الإسلام ، وهدماً للحواجز والسدود التى كانت تمنع أنوار الإسلام من الانتشار والسطوع وبلوغ مداها .

وهكذا الإنسان بالتفكير العميق والتأمل البعيد عرف الله واكتشف الكثير من أسرار الكون وقوانين الطبيعة والنظريات العلمية . وتحصيل العلم وبناء الحضارة يتطلب نشاطاً عقلياً ونفسياً وجسمياً واجتهاداً وسعياً وعملا . والعلم لا يؤتى أكله ولا يثمر ما لم يتبعه تطبيق لنظرياته وأفكاره وعمل بمنهجه وأسلوبه . ويجب على المرء أن يعمل بما يعلم وإلا كان كالشجر بلا ثمر . لذلك أمر الله الإنسان أن يفكر ليعرف ويعلم أمره أن يعمل بثمرات تفكيره وعلمه . لأن تعمير الأرض وبناء الحضارة وصنع الحياة الطيبة الكريمة يتطلب تفكيراً وعلما وعملا . لهذا دعاه الله تعالى إلى العلم فقال جل شأنه : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . وأمره بالعمل الطيب المثمر : « وقل اعملوا فسيرى

الله عملكم ورسوله والمؤمنون » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » وقال تبارك وتعالى : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وهكذا أمر الله تعالى بالتفكير الحر السليم والعلم السامى النافع والعمل الطيب المثمر . لأنه بذلك يهتدى الإنسان إلى الله ويعرف نفسه كما أنه شاد منار العلم والحضارة والمدنية وأنتج ما أنتج من ألوان العلوم والآداب والفنون . وطار فى الجو وصعد إلى القمر وغاص فى البحر وذلل البر لخدمته .

العصر الذهبى للعدالة الإنسانية

يحدثنا التاريخ قديمه وحديثه أن الدماء الغزيرة التى سفكت ظلما وعدوانا والجرائم والمظالم التى ارتكبت والرذائل والآثام التى اقترفت والأموال التى نهبت والأرزاق والأعناق التى قطعت بالظلم والباطل كانت من فعل الذين لم يعرفوا الله ولم يتقوه ، ويحدثنا كذلك أن مبادىء الحق والعدل والفضائل الإنسانية لم تنتشر ولم تزدهر إلا على أيدى الذين يؤمنون بالله حقا وينفونه فهم يجتنبون المفاسد والآثام كما يجتنبون الأمراض والأوساخ فهم رعاة الفضائل